الفصل الرابع عشر

الاسترهاب الداخلي
أخطر من الإرهاب الخارجي

ـ 1 ـ

مما لا يختلف عليه اثنان أن العالم العربي والإسلامي يتعرض اليوم، وأكثر من أي وقت مضىٰ، إلىٰ عمليات مسح ومراقبة ومتابعة حثيثة من العالم أجمع، وبالأخص من الدول الكبرىٰ وعلىٰ رأسها أمريكا، التي تعتقد أن عند العرب والمسلمين ما يخيفها علىٰ حاضرها أو مستقبلها، أو أن عندهم ما لا يستحقون من ثروات طبيعية ومعدنية ونفط، فتحسدهم عليه وتسعىٰ لأخذه منهم بطرق مشروعة أو غير مشروعة، أو ترىٰ أن في بلادهم منافعها وسوقها وتجارتها وعصب حياتها الصناعية والاقتصادية والرأسمالية الطامعة، وبالتالي عمدت تلك الدول إلىٰ أن تكون بلاد العرب والمسلمين تحت المراقبة الدائمة، وعمدت إلىٰ أن تزرع في بلادهم من العوائق ما يمنع قيامها وتقدمها، ولو كان ذلك بزرع كيانات سياسية عربية مستبدة، أو بزرع كيانات غريبة عنها في قوميتها، ومخالفة لها في دينها وعقائدها، وتنازعها الهوية في أيديولوجيتها وحضارتها، وتحاربها علىٰ أرضها ومائها وسمائها.

وإذ لم يحقق ذلك النتائج المرجوة لها، فقد عمدت تلك الدول الكبرىٰ إلىٰ تكرار الاحتلال مرة بعد أخرىٰ، وإلىٰ زرع قواعد عسكرية برية وبحرية وجوية للسيطرة عليهم، وهي تدعي حماية الشعوب من استبداد أحزابها الحاكمة وقادتها المتجبرين، وتدعي أنها تحاربهم من أجل نشر قيم الحرية والمساواة في بلادهم، ومن أجل ضمهم إلىٰ العالم الحر بعد إجراء الانتخابات الرئاسية والتشريعية بالمعايير الأوروبية والأمريكية، أي أنها تحتل هذه الدول بدعوىٰ إزالة الكيانات السياسية المستبدة، وتفرض بدلاً عنها كيانات مصطنعة

لا حول لها ولا قوة، ولا قدرة لها في البقاء سلطة علىٰ شعبها إذا رفضت وجوده العسكري أو حاولت التحرر من نفوذه.

ـ 2 ـ

إن الاحتلال الخارجي للبلاد العربية والإسلامية وإن لم يكن جديداً، لأن الأمة عرفته منذ قرون بالحملات الصليبية، إلَّا أن هذا الاحتلال يتميز عن غيره من الاحتلالات السابقة بأوصاف كثيرة منها:

1 ـ يمتاز بأمده الطويل، فقد بدأ منذ قرن أو أكثر، أي منذ الحرب العالمية الأولىٰ، بالرغم مما تحقق في المنطقة من محاولات الاستقلال العسكري أو السياسي أو الفكري بين الفينة والأخرىٰ.

2 ـ يمتاز هذا الاحتلال بالقسوة العسكرية، وأسلحة الدمار الشامل التي تستعمل فيه، والتي لا يملك العرب والمسلمون شيئاً منها للدفاع عن أنفسهم، فضلاً عن إمكانية إزالة الاحتلال وتحقيق الاستقلال بكل أشكاله، إضافة إلىٰ القتل الواسع للمدنيين الأبرياء والتعذيب غير القانوني واللاأخلاقي في السجون.

3 ـ يمتاز هذا الاحتلال باستعماله سلاح الفكر والشعارات البراقة والمكر والدهاء والخديعة، ما يتجاوز حدود السلوك الإنساني، ويجعل الصراعات البشرية في حروبها وصراعها وكأنها في غابة من الحيوانات.

من أسلحة مكره ـ كما يرىٰ البعض ـ أنه قد يحدث في دوله وفي شعبه التفجير والقتل والتدمير، إما بتخطيط من إداراته السياسية العليا أو بتخطيط من أصحاب المصالح المالية والعسكرية من مواطنيه أو بدسائس المنتفعين من هذه التفجيرات من أصحاب اللوبيات الداخلية والخارجية فيه، قد يحدث مثل هذه التفجيرات والقتل والتدمير، هنا وهناك من مدن العالم الغربي الأوروبي أو الأمريكي، ويصورها لشعبه ولشعوب العالم أجمع، وهي تبثها لهم في بث حي ومباشر عبر الفضائيات ووسائل الإعلام المختلفة، علىٰ أنها أكبر شر وقع في التاريخ،

ثم تتهم بها العرب والمسلمين وهم فيما هم فيه من الضعف والعجز، تتهمهم علىٰ أنهم المخططون له والمنفذون، دون أن تقيم لذلك تحقيقاً علنياً عادلاً، أو أن تقدم علىٰ ذلك دليلاً مقنعاً، وتصور ذلك علىٰ أنه تم بسبب كره العرب والمسلمين للأمريكيين، وكرهاً منهم بالقيم الأمريكية، وكأن سبب هذه التفجيرات هو العداء الفكري الذي يحمله العرب والمسلمون ضد الأمريكيين[1]، وهذه سذاجة قد يستغربها العربي والمسلم ولكنها قد تجد في أذن المواطن الغربي قبولاً وربما قناعة.

ـ 3 ـ

يرىٰ البعض أن أحداث الحادي عشر من أيلول لعام 2001م التي وقعت في مدينة نيويورك الأمريكية، من أكبر الحيل التي تذرعت بها أمريكا لخلق نظام فكري وحضاري وأيديولوجي أمريكي جديد[2]، بعد أن تذرعت بزوال الاتحاد السوفييتي لخلق نظام عالمي اقتصادي وسياسي وعسكري جديد، ولما كان النظام الثقافي الفكري الأمريكي الجديد يحتاج إلىٰ العدو كما كان النظام العسكري القديم يحتاج إلىٰ العدو المتمثل بحلف وارسو، فقد وجدت بعض القيادات المنحرفة في أمريكا ضالتها في العرب والمسلمين، وذلك بتصويرهم علىٰ أنهم أشرار هذا النظام الفكري الجديد، لأنهم العدو التاريخي في الحروب الصليبية، وفيهم الحركات العربية والإسلامية التي ينسب إليها عمليات جهادية في مقاومة المحتل في بلادهم، ويسهل اتهامهم في هذه التفجيرات، وبالأخص إذا رصدت أجهزة الإعلام الغربية والعالمية كل إمكانياتها لتصوير هذه التفجيرات والمآسي التي تنجم عنها.

يرىٰ البعض أن كل ذلك وفر للإدارة الأمريكية صناعة العدو الفكري بيسر وسهولة، فضلاً عن أنها آمنة من عجز عدوها العسكري والسياسي عن الانتقام، بسبب ما لحقه في

---

(1) انظر: رسالة من أمريكا، مثقفون أمريكيون يخاطبون المسلمين بشأن الحرب على المتطرفين (من أجل ماذا نحارب)، مجلة الاجتهاد، العدد (54)، السنة الرابعة عشرة، ربيع 2002م ـ 1423هـ ص 201.

(2) انظر كتاب: من وراء أحداث سبتمبر، تأليف سهيلة زين العابدين حماد، مركز الراية للتنمية الفكرية، جدة ودمشق، ودار الأعلام للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 1424هـ 2003م.

القرن الماضي من احتلال واستعمار عسكري وسياسي وثقافي من قبل أوروبا ومن قبلها، وبما ألحق به من ضعف وتخلف وتدمير وضياع علىٰ يد الأنظمة العسكرية والحزبية المستبدة، فكانت الإدارة الأمريكية أو المنتفعون من تجارة الحروب فيها، آمنين علىٰ أنفسهم إذ ألصقوا أشد التهم الإجرامية بالعرب والمسلمين، وآمنين بأنهم لن يجدوا ردة فعل فكرية يقظة، ولا عقلية مستنيرة تحبط مخططهم، ولا مواقف سياسية رسمية تفند مزاعمهم.

— 4 —

إذا كان ذلك صحيحاً فقد صنعت الإدارة الأمريكية لنظامها الفكري الجديد عدوها الفكري، وصنعت لنفسها شعارها ولعدوها شعاره أيضاً، وأعدت نفسها للحرب في سبيل نظامها الفكري الجديد، فشنت الحرب علىٰ أفغانستان ضد المسلمين، وعلىٰ العراق ضد العرب، وهي في الحقيقة تعطي بهم الدرس لمن قد يفكر في مواجهة نظامها الفكري والاجتماعي والحضاري، الذي تقدمه للعالم باسم "العالم الحر" الذي يقوده الأخيار ويدعون إلىٰ الحرية والديمقراطية، وعدوها هو الإسلام، الذي يقوده الأشرار ويدعون إلىٰ الظلام ولا يعرفون إلَّا الإرهاب، بحسب الإعلام الغربي.

هذا التحليل هو ما قد ظهر بعد عامين تقريباً من تلك الأحداث، وهو ما يقتنع به ويتداوله أغلب الناس في أحاديثهم دون أن يجدوا طريقاً إلىٰ إعلانه علىٰ الملأ، فالغالبية العظمىٰ من العرب والمسلمين غير مقتنعين بأن القلة من العرب والمسلمين الذين نسب إليهم تنفيذ هذه الأحداث هم المخططون فعلاً، بل يشكّون إن كانوا هم المنفذين لها أيضاً، والأهم من ذلك أن هذه الأحداث قد أخذت من العرب والمسلمين الكثير من التفكير والتحليل والمؤتمرات والندوات والحوارات، دون أن يتمكنوا من كشف الحقيقة للعالم أجمع، وإذا لم يتمكنوا من ذلك فلا بأس أن يكون لدىٰ المسلمين أنفسهم تصور لهذه الأحداث ونتائجها عليهم، وبالأخص أثرها علىٰ مشاريع النهضة والإصلاح، وأثرها علىٰ بناء البنية الفكرية الإسلامية القادرة علىٰ تجاوز الأزمات الراهنة، حتىٰ لا تكون نوعاً جديداً من الاستبداد الذي يعيق النهضة المنشودة.

من أهم هذه التحليلات ما تقدم به المفكر العربي المسلم الدكتور طه عبدالرحمن في مقال له بعنوان: (المانوية الجديدة وقتل الآخر)[1]، نجد أن من الفائدة مناقشتها، وإن كان ذلك لا يعني تبني كامل اجتهاده، وبالأخص في العلاج الذي اقترحه حفظه الله.

ـ 5 ـ

وأول ما بينه الدكتور طه هو أن تعبير "الحرب علىٰ الإرهاب" والذي درج الإعلاميون العرب علىٰ استعماله بكثرة، تأثراً بأفراد من الحكومة الأمريكية عقب أحداث سبتمر 2001م، وصيغته الإنجليزية (War on terror)، أنه لا يستقيم لغة في ترجمته العربية.

ويرىٰ الدكتور طه أن هذا الشعار وبحسب خطاب الرئيس الأمريكي إلىٰ الكونغرس في (20 سبتمر 2001م)، أنه يقوم في أحد المكونات الدلالية لهذا المفهوم "محاربة الإرهاب" علىٰ "النزعة المانوية" أو إن شئت "النزعة الاثنينية" وأن هذه النزعة تذهب في صورتها العامة إلىٰ القول بوجود تصارع في العالم بين مبدأين أصليين اثنين لا ثالث لهما، أحدهما إيجابي ينبغي العمل علىٰ جلبه والآخر مبدأ سلبي ينبغي العمل علىٰ دفعه، مستنداً إلىٰ قول الرئيس الأمريكي في الخطاب: (يجب علىٰ كل بلد في كل جهة من العالم أن يتخذ الآن قراراً، إما أنكم معنا، وإما أنكم مع الإرهابيين، ومن الآن فصاعداً كل بلد يستمر في إيواء الإرهابيين ستعده الولايات المتحدة نظاماً معادياً).

يقول الدكتور طه: فواضح أن هذا القول يقابل بين "الكون مع الأمريكيين" و"الكون مع الإرهابين"؛ والمقصود هنا بأن تكون مع هؤلاء أو أولئك هو بالذات أن تكون منهم، بحيث يصبح تفسير وجود الإنسان في العالم كله مردوداً إلىٰ المقابلة التالية: إما "أن تكون من الأمريكيين" أو "تكون من الإرهابيين"، ويصبح طرفا هذه المقابلة في نهاية المطاف بمنزلة نقيضين هما: "الذات الأمريكية" و"الآخر الإرهابي"؛ وحينئذ، لا عجب أن يرفع بعض الأوربيين شعارَ "كلنا أمريكيون"، إذ ليس لهم خيار آخر إلَّا "كلنا إرهابيون" وهكذا، يظهر أن

(1) نشر هذا المقال على موقع منتدى الحكمة للباحثين والمفكرين، على الإنترنت (www.almoufakkir.org).

المانوية التي يتأسس عليها مفهوم "محاربة الإرهاب" تأخذ بالتقابل بين مبدأين هما: "مبدأ النسبة إلىٰ الذات الأمريكية" و"مبدأ النسبة إلىٰ الآخر الإرهابي"، ولنسمها بـ"المانوية الجديدة".

— 6 —

يبني الدكتور طه علىٰ هذا التقابل بين النسبتين المذكورتين أركاناً ثلاثة، سماها أركان المانوية الجديدة:

الركن الأول: الركن الديني للمانوية الجديدة

مبيناً أن اسم المانوية مشتق من مؤسسها "ماني" الملقب بـ"البابلي" والذي عاش في القرن الثالث الميلادي (216 – 276)؛ وقد ابتدع مذهباً دينياً بناه علىٰ تعاليم مأخوذة من الديانات الثلاث: "النصرانية" و"الزردشتية" و"البوذية"، وأشهر هذه التعاليم أن الكون يتأسس علىٰ مبدأين أزليين متصارعين هما: "الخير المطلق" وسيّده الرحمان و"الشر المطلق" وسيّده الشيطان؛ وهذا التقابل بين الخير المطلق والشر المطلق هو عينه الذي نجده في المانوية الجديدة، ذلك أنها تعتقد أن الذين قاموا بأحداث سبتمبر يجسدون الشر المطلق، بحجة أنهم أرادوا أن يحملوا الأمريكيين علىٰ ترك نمطهم في الحياة ونبذ النظام الحر الذي ينبني عليه.

ويرىٰ الدكتور طه: يلزم من ذلك أن الذين يجسدون الخير المطلق إنما هم الأمريكيون أنفسهم، بل إن هذه النزعة ذهبت إلىٰ أبعد من ذلك، فقسمت العالم إلىٰ محورين اثنين: "محور الخير"، و"محور الشر"، وجعلت محور الشر يشمل، لا فئة واحدة، وإنما فئات ثلاث، وهي: "فئة مرتكبي هذه الأحداث" و"فئة البلدان التي تؤوي الإرهابيين" و"فئة الدول النامية التي يُحتمل أن تمتلك أسلحة الدمار الشامل"، بدعوىٰ أنها قد تُمد الإرهابيين بهذه الأسلحة كما ورد ذلك في خطاب 29 يناير 2002.

— 7 —

وهنا نجد أن الدكتور طه، لم يذكر فئة مهمة وهي فئة المذاهب والأحزاب والمدارس الثقافية الإرهابية التي يتعلم فيها المتهمون ويتخرجون منها، وهي ليست دولهم ومجتمعاتهم

فقط، وإنما أحزابهم الفكرية ومذاهبهم الفقهية والعقدية، وهي الفئة المستهدفة أصلاً في الصراع الفكري، طالما أن المانوية تقوم علىٰ فاصل ديني وفكري وثقافي في أصله، بدليل أن المانوية الجديدة كما يرىٰ الدكتور طه تنبني علىٰ المقولتين الدينيتين: "الخير المطلق" و"الشر المطلق"، والتي ترتب عليها " النتائج التالية:

1 ـ لا بد لمحاربة الإرهاب الذي يتأسس علىٰ هذه المانوية أن يكون في حقيقته حرباً دينية؛ وخير شاهد علىٰ ذلك أن دعاة هذه الحرب لم يتردَّدوا في وصفها بـ"الحرب الصليبية" وفي وصف طورها الأول بكونه "عملية العدل اللامتناهي"؛ ولا ينفع بعضَهم مطلقاً اعتذارُهم عن هذه التسمية بقولهم إنهم أساءوا التعبير عن مقصودهم.

2 ـ لا بد لها أن تكون حرباً منتشرة في المكان وممدودة في الزمان، فما من بلد من البلدان إلَّا ويصطلي بنارها، ولا وقت من الأوقات إلَّا ويشهد فصلاً من فصولها؛ فقد طُلب من كل الدول أن تدخل في هذه الحرب مع المتحالفين، وإلَّا أصابها ما يصيب الإرهابيين كما أنه قيل لها بأن هذه الحرب ستكون طويلة، بل قيل لها إنه لا نهاية لها، لأن حقيقتها أنها حروب متتالية، وليست حرباً واحدة.

3 ـ لا بد أن تُستخدم فيها كلُّ الوسائل الممكنة؛ فقد وقع الغلوُّ في استعمال ما هو موجود من الوسائل ـ بما أفضىٰ إلىٰ إجراءات تعسفية كالحد من الحريات المدنية ـ واشتد السعيُ إلىٰ إنشاء ما هو غير موجود منها ـ كإقامة مؤسسات أمنية واستخباراتية جديدة؛ كما أنه لم يُكتفَ باستخدام ما هو مشروع من الوسائل، بل وقع الالتجاء إلىٰ ما ليس مشروعاً، مع العمل علىٰ إيجاد المشروعية له، شأن التضليل الإعلامي والتهديد بالعقوبات وممارسة الابتزاز".

الركن الثاني: الركن السياسي للمانوية الجديدة

يرىٰ الدكتور طه أن التقابل بين الأمريكي والإرهابي في المانوية الجديدة لا ينبني علىٰ التقابل بين الخير والشر فحسب، بل " ينبني أيضاً علىٰ تقابل ثان، وهو التقابل بين الصداقة والعداوة؛ فمعلوم أن بعض علماء السياسة جعلوا من هذا التقابل الأصل في وجود مجال

السياسة كما يكون التقابل بين الخير والشر الأصل في وجود مجال الأخلاق، ويكون التقابل بين الحسن والقبح الأصل في وجود مجال الجمال ...

ولما كانت المانوية الجديدة تنبني على المقولتين السياسيتين: "الصداقة" و"العداوة"، ترتَّبت على ذلك النتائج التالية:

1 ـ لا بد أن يُنظَر إلى الإرهاب، لا على أنه عبارة عن أفعال يقوم بها أفراد يُخلّون بأمن الناس، بل على أنه عبارة عن أفعال تقوم بها وحدات سياسية أشبه بالدول تستحق أن تُعامَل معاملتها؛ وهذا يعني أن أفعال هؤلاء الأفراد تصير معدودة في أفعال الحرب والعدوان، بل معدودة في أسوأ منها، فإذن ينبغي أن تُدفع بحرب لا هوادة فيها.

2 ـ لا بد أن يتوسع مدلول "الإرهاب"، فيصبح مشتملاً على أفعال لم تكن تدخل فيه، شأن المظاهرات ضد الحرب أو ضد العولمة، بحيث تصبح العداوة على نوعين: "عداوة خارجية" و"عداوة داخلية"؛ وكما أن أعداء الخارج من الأجانب يواجَهون بالقوة الساحقة والسلاح الماحق، فكذلك أعداء الداخل من المواطنين ينبغي قمعهم وهزمهم بكل شدة.

3 ـ لا بد أن يضيق نطاق النقد إلى حد كبير؛ فالبحث في أسباب الإرهاب يُفسَّر على أنه تبرير لقتل الأبرياء كما أن المنازعة في أخلاقية محاربة الإرهاب تُفسّر على أنها خلل في وطنية المنازع متى كانت جنسيته أمريكية أو أنها، على الأقل، ضعف في روح التضامن متى كانت جنسيته غير أمريكية، وإلَّا فمنازعته مساندة للإرهابيين".

الركن الثالث: الركن العسكري للمانوية الجديدة

ينبني التقابل بين الأمريكي والإرهابي في المانوية الجديدة على تقابل ثالث، وهو التقابل بين الاستحياء (بمعنى الإحياء) والقتل، فقد أصبح السلوك العسكري في نطاق المانوية التي تجعل الناس قسمين: أصدقاء أو أعداء، متعلقاً بالصديق قدر تعلُّقه بالعدو، ذلك أن حياة الصديق لا تكون محفوظة ابتداء، وإنما تصير محفوظة بإرادة العسكري كما تكون حياة العدو مُهدرة بإرادته؛ وهكذا، فالصديق هو الذي قرّر المانويون الجدد أن يستحيوه والعدو هو الذي

قرروا أن يميتوه؛ وينهض دليلاً علىٰ ذلك كونهم هددوا بلدان العالم كله بالموت والدمار متىٰ لم تتحالف معهم في حربهم الصليبية، بل إنهم بعد الفراغ من حربهم الأولىٰ، هددوا هذه البلدان بأنهم سيهاجمون المزيد منها، مع أن بعضها كانت تظن أن صداقتها معهم ليست كمثلها صداقة، فضلاً عن أنهم لا يتصورون أن يصادقهم أحد ويخالفهم في ذات الوقت؛ فالصداقة عندهم لا تجتمع إلَّا مع الوفاق التام الذي هو أشبه بالتبعية منه بشيء آخر، والصديق التابع، في ساحة الحرب، حياته مرهونة بكون الصديق المتبوع يريد أن يستبقيها، كما أنهم يتصورون أن الإرهاب لا يأتي إلَّا من الآخرين، والأصدقاء آخرون قد ينقلبون في ظنهم إلىٰ إرهابيين، فهم عندهم أعداء بالقوة، ولا عجب أن يتقلبوا في صداقتهم لهم بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم....

يرىٰ الدكتور طه أن المانوية الجديدة تَعُدُّ الآخَر شراً مطلقاً وعدواً يجب قتله، مُعلنة عليه حرباً صليبية وهجومية وإستراتيجية تتوسل بأقوىٰ أدوات البطش والتدمير؛ ومن ثمَّ، فليس في نزعات التسلط التي تعرضت لها البشرية في تاريخها أكثرُ منها ظلماً للآخر، ولا أشد منها تصميما علىٰ إبادته، ألا ترىٰ كيف أنها تقرر أن الإنسان إما أن يكون أمريكياً أو لا يكون! والسؤال المصيري الذي يواجهنا الآن هو: كيف نتصدىٰ لهذه النزعة الباغية بما يعيد الاعتبار إلىٰ الآخَر والآخَرية ويعيد التوازن إلىٰ علاقة الذات بالآخر؟

— 8 —

يقول الدكتور طه: إننا نحتاج في التصدي للمانوية الجديدة إلىٰ نزوع لا يقوم علىٰ مبدأ القوة المادية كما تقوم هي عليه، لأن المانويين الجدد حصَّلوا من هذه القوة ما لا مزيد عليه وما نُمنَع نحن من تحصيله، ثم لأن القوة المادية لا تدفعها إلَّا قوة من جنس فوق جنسها؛ فإذن لا بد من أن ننزع نزعة تكون أشرف رتبة من المانوية الجديدة، وبالتالي أعظم قوة منها؛ وهذه النزعة الأشرف والأقوىٰ أسميها باسم "الجهادية الدائمة"؛ فما هي إذن أسس هذه الجهادية؟

ويرىٰ الدكتور طه أن لا سبيل إلىٰ التصدي لشرور "محاربة الإرهاب" في ظل المانوية

الجديدة إلّا بإعادة الاعتبار إلىٰ الآخر وإقامة التوازن في علاقة الذات بالآخر، ولا يحصل هـذا الاعتبار والتوازن إلّا بفضل الجهادية الدائمة التي تأخذ بمبدأ التداخل بين الـذات والآخـر، متمثلاً في الإقرار بتعدد الذوات وتعدد الآخرين وبازدواج بعضها ببعض.

وينبني هذا المبدأ الجهادي علىٰ أركان ثلاثة تَلزم منها نتائج هي نقائض النتائج التي تلزم من أركان مبدأ التقابل الذي تأخذ به المانوية الجديدة:

1 ـ الركن الجهادي الأول، فهو الإخلاص الشامل؛ ومقتضاه دوام العمل علىٰ الخروج عـن كل المصالح التي تتسبب في النزاعات المفـضية إلىٰ إيـذاء الآخـر؛ والمخلـص لا يـضيِّق مدلول الدين، ولا يبُثّ روح الحرب، ولا يشتط في استعمال الوسائل.

2 ـ وأما الركن الجهادي الثاني، فهو الإحسان المتواصل؛ ومقتضاه دوام الارتقاء في مراتـب الإيمان؛ والمحسن لا يهوّل جانب السوء في أفعال الآخـر، ولا يوسّـع دائـرة المخـالفين، ولا يُغلق باب نقد الذات.

3 ـ وأما الركن الجهادي الثالث، فهـو الاستـشهاد الـضروري؛ ومقتـضاه دوام الاسـتعداد ببذل الروح حيث ينبغي وكما ينبغي؛ والاستشهادي لا يصرف البدائل، ولا يتعلق بقوة السلاح، ولا يبتغي قتل المدنيين الأبرياء".

ـ 9 ـ

إن التشخيص العميق الذي تقدم به الدكتور طه لوصف معنىٰ العبـارة التـي أطلقتهـا الإدارة الأمريكية الحالية في الحرب علىٰ الإرهاب، مقنع ومفيـد في فهـم الموضـوع في المنظـور الأمريكي، وما يترتب عليه من تحـديات سياسـية إلىٰ الـدول التـي وجـه لهـا هـذا التحـدي، وكذلك ما ترتب عليه من تحديات إلىٰ القوىٰ الفكرية التي وجه إليها هذا التحـدي الفكـري، والتي هي المعرَّضة للهجوم الفكري في إعلان الحرب علىٰ الإرهاب الفكـري، ولـذا نطالـب المفكرين العرب والمسلمين أن يقيموا جوابهم ليس فقط علىٰ الموقف من الآخـر نحـو الآخـر فقط، وإنما في بناء الموقف من الآخر نحو أنفسهم أولاً، بمعنىٰ أن يسألوا عن أثر هذه الحـرب

الإرهابية المتبادلة بين أطراف كل واحد منهما يتهم الآخر بأنه إرهابي، أن يسألوا عن أثر هذه الحرب علىٰ صناعة الاسترهاب الداخلي بين المسلمين أنفسهم، بحيث لا تعطل فيهم حركة الاجتهاد الفكري الذي هم بأمس الحاجة إليه، ولا تحبط المسلم في أن يعبر عن موقفه الفكري الفقهي أو العقدي أو السياسي بكل حرية خشية الاتهام بالإرهاب، ولا تزيد الضعيف عجزاً، ولا المتخلف تأخراً.

أي أن الاسترهاب أخطر من الإرهاب، لأنه من الممكن أن يضعف المسلمين من الداخل، وإذا كانت إعادة الاعتبار إلىٰ الآخر وإقامة التوازن في علاقة الذات بالآخر مطلوبة، فإن ما هو مطلوب أكثر هو الموقف من الذات في الداخل قبل الخارج، والمطلوب هو إعادة الاعتبار إلىٰ الذات التي لا تخشىٰ تهمة الإرهاب نفسها، طالما هي مقتنعة أن تهمة الإرهاب مقصودة من الآخر لشل قوىٰ الخصم داخلياً.

الصورة الداخلية هي الأهم، أي الصورة التي يرسمها أهل الداخل عن أنفسهم، إن كانوا يرون أنفسهم إرهابيين أو لا، فإن اختلطت مع ما يأتي من الخارج فإن المعاناة من المانوية لا تحصر في الثقافة الأمريكية الجديدة وإنما مع الثقافة الداخلية في الدول العربية والمسلمة مع أبنائها ومواطنيها، حتىٰ لا تكاد تجد صورة داخلية صافية، وبالأخص من الناحية السياسية، خوفاً من الاسترهاب.

ولذا فإن الحديث عن الصورة السياسية الخارجية أكثر من الصورة الداخلية ستكون مدعاة اختلاف شديد، وربما عدم ثقة، وقد تكون غير مجدية في الوقت نفسه، بينما الحديث عن الصورة الفكرية والثقافية الداخلية يؤسس لفهم الأمور بثقة وجدارة، بحيث لا تعلن الدول العربية والإسلامية الحرب علىٰ نفسها ومواطنيها باسم الحرب علىٰ الإرهاب، وترفض شرعية الاختلاف مع المفكرين في دولها باسم الحرب علىٰ الإرهاب، وهي في الحقيقة تمارس الاسترهاب، أي خشية التهمة من الإرهاب أو دعمه.

— 10 —

إن الخطورة أن تتحول الحرب على الإرهاب أداة بيد الاستبداد السياسي والفكري بين العرب والمسلمين، فيصبح الخوف من الإرهاب والخوف من تهمة الإرهاب عقبة جديدة على طريق النهضة والتغيير والإصلاح، مع أن المطلوب هو المزيد من الحرية الفكرية، والمزيد من تطوير وسائل وأدوات فهم أكبر وأوسع للاجتهاد الإسلامي، ووسائل تطوير حوارات بين المسلمين أنفسهم، وتطوير خطاب المسلمين مع الآخرين من الناس من غير المسلمين، الذين يريدون أن يجعلوا من هذا القرن الحادي والعشرين حرباً شعواء ظالمة على الإسلام والمسلمين، دون أن يتركوا لشعوبهم مجالاً لتفهم حقيقة هذه الحرب، عبر وسائل الإعلام غير المنحازة لهم، ودون أن يتركوا للشعوب العربية والإسلامية أن تضع هذه الحرب في موازينها الصحيحة، ولا أن تخاطب نفسها ولا شعوب العالم عن الصورة المشوهة التي تتعمد بعض وسائل الإعلام الغربية والعربية والعالمية العمل بها والتركيز عليها، نقول ذلك لأن العرب والمسلمين لم ولن يتخلوا عن الإسلام، لا في بلاد العرب ولا خارجها، فالإسلام دين يؤمن به العرب والمسلمون بعقولهم العلمية قبل قلوبهم الشعورية، لا كدين كهنوتي وإنما ديناً علمياً، ومبدأ عقلياً، وهوية فكرية، وحضارة متقدمة، وخلاصاً إنسانياً نحو السعادة والخلود.

إن على أحرار العالم أجمع أن يفهموا الحقيقة وإن كانوا غير راضين عنها، وهو أن الإسلام ليس زائراً انتهت مدة زيارته، ولا بضاعة انتهت صلاحيتها، وإنما قيماً عقلية وعلمية تفرض نفسها على الإنسان الحر في تفكيره، الإنسان القارىء والمفكر والعالم والفيلسوف الصادق، فإن كان حراً فعلاً، فلا يجد بداً من قبول الإسلام عقلياً، وتفسيره علمياً، ومحبته قلبياً، والدعوة إليها تعارفياً بين الناس، مهما منع من الاقتراب منه، أو أرهب من التعرف عليه.